نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ودورها في إثراء اللغة وكشف المعنى

طالبة دكتوراه : نور الهدى حسني
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، والبحث في كيفية ظهور المصطلح وكيفية تحقّقه، وتوضيح مدى إسهام نظرية في إثراء اللغة وضبط المعنى، من خلال ما تطرحه من أدوات لغوية ووجوه للتراكيب بينها فروق لغوية في أداء المعنى،كشف عنها الجرجاني وهو يبيّن إعجاز القرآن الكريم من خلال صياغته وتراكيبه، كما تتناول الدراسة بالتحليل والمقارنة بعض تقاطعات نظرية النظم في سياق تحليلها لإعجاز القرآن الكريم مع الدراسات اللسانية الحديثة

Abstract:

Abd Elkahir El Djordjani's Theory of Nadm and Its Role in Enriching the Language and Uncovering Meaning
The aim of this study is to determine the concept of Nadm in Ebd Elkahir El Djordjani, to look at how the term has emerged and how it is achieved, and to clarify the extent to which a theory has contributed in the enrichment of the language and in the adjustment of meaning through what it poses from linguistic tools and forms of strutures which have language differences in rendering meaning, whereby El Djordjani has disclosed them when he shows the Holy Quran Miracle through its formulation and structure. The study also addresses through analysis and comparison some of the intersections in the theory of Nadm in the context of its analysis of the Holy Quran Miracle with modern linguistic analysis.

المنارة للاستشارات

مقدمة :

لا جرم أنّ البحث في البلاغة العربية مفيد ومثير، بلْه البحث في نظريّة "النظم"، ومواطن الإعجاز البياني في القرآن الكريم، كيف لا وهي نظرية شاملة تحاول تقنين النظام العام الذي يحكم الجملة، ويرتقي بها إلى النّص، استنادا إلى مباحث نحوية وبلاغية، مما جعلها تقف بكبرياء اليوم أمام الدراسات الحديثة، لما تحويه من نظرات ثاقبة، ومباحث دقيقة، بقوانينها وأساليبها، توصّل إليها مبدعها" الشيخ عبد القاهر الجرجاني"(ت471هـ) محاولا من خلالها إظهار مواطن الإعجاز في القرآن الكريم .

وقد تولّد مصطلح "النظم "، نتيجة بحث علماء العربية القدماء في إعجاز القرآن الكريم، فتدارسوا طرائق نظمه وتأليفه وقارنوها بالأشعار العربية التي بلغت الذروة السامقة في صياغتها وتركيبها، وكان تركيزهم منصبا على الجانب البلاغي متساوقا مع الجانب النحوي. حتى استقر نظرية استقامت على عودها مع عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وصار نظرية تبحث إعجاز القرآن الكريم، في تراكيبه وصياغاته، وبيانه، وسياقاته الاستعمالية، ومن خلاله بحث المعنى وكيفية ضبطه وفهمه.

هذه النظرية التي نجدها تتقاطع اليوم مع كثير من الأفكار والاتجاهات اللسانية الحديثة؛ الوظيفية والبنوية وعلم الدلالة، والأسلوبية، ولسانيات النص والتداولية.

ولعل هذا ما يدفعنا لطرح السؤال الآتي: ما المقصود بنظرية النظم ؟ وما مدى إسهامها في إثراء البحث اللغوي والأدبي ؟

أولا: النّظم عند عبد القاهر الجرجاني :

يشكل تراث عبد القاهر الجرجاني في البلاغة العربية مجالا خصبا للبحث والتداول في الفكر اللساني المعاصر لما يحمله تراثه من أفكار قيمة قابلة للبحث والقرض والاقتراض مع الدراسات اللسانية المعاصرة ، خاصة في نظرية "النظم" التي بحث فيها مظاهر إعجاز القرآن الكريم مستفيدا من جهود سابقيه، ليصل إلى أن النظم يرتبط بكيفيات مخصوصة تدخل فيها الألفاظ في تراكيب مخصوصة تتفاعل فيما بينها لتنتج نظما متماسكا بحسب سياق التلفظ ومقاصد المتكلم الإبلاغية إن إخبارا أو أمرا أو غيره من المعاني المنتجة يقول: «ينبغي أن

المنارة للاستشارات

ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا... وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتيها على ما هي موسومة به»(1) .

فالألفاظ لا توجب الإعجاز وحدها لأنها ليست غريبة على العرب، وكذلك المعنى بل الإعجاز يمكن في النظم الذي يراعي معاني النحو والملاءمة بينها وبين المعاني النفسية في تركيب الكلام .

يقول الجرجاني: « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر، في وجوه كل باب وفروقه . » (2) .

يشكل هذا النص مفتاحا مهما لنظرية النظم التي لها وجوه عديدة بينها فروق في المعنى وكيفية أدائه، بيّنها الجرجاني وحاول من خلالها توضيح مناط إعجاز القرآن في وجوه التراكيب وما بينها من فروق في الأداء ، وكشف بها مدى ثراء اللغة في معانيها، واستغرق شرح النص من عبد القاهر الجرجاني كتاب "الدلائل" كله، ومن هذه الوجوه "ما يتعلق بعلم الدلالة والبلاغة وعلم الأسلوب ومنها ما يتعلق باللسانيات"(3) إضافة للنحو مرجعيته الأساسية، ولعل هذا ما جعل الدارسين يوظّفون مفهوم النظم حسب مجال تخصصهم نحو ودلالة، وسيمياء، وبلاغة وأسلوبية، ولسانيات نص، وتداولية، ويصلون إلى نتائج باهرة خاصة مع علماء لسانيات النص والتداولية، فقد نفذ عبد القاهر الجرجاني في مباحث نظريته إلى كثير من ظواهر اللغة وتناولها بعمق وبكيفية بيّنت أهمية هاته اللغة في تحديد المعنى وضبطه بإحكام، على غرار ما نجده في تراكيب القرآن الكريم المعجزة تركيبا ودلالة وبيانا، وقد أكدت كثير من الدراسات اللسانية الحديثة ما ذهب إليه الجرجاني في طروحاته، من ذلك نفاذه إلى صميم الظاهرة النصية، بحيث تظهر واضحة دلائل الدراسة

المنارة للاستشارات

النصية عنده، فهو يدعو صراحة إلى توخي معاني النحو، ومعاني النحو لا تقف عند الجملة وحدودها، بل تتجاوزها لما بين الجمل من ترابطات وتعالقات نصية؛ حيث يرى أن "من أسرار البلاغة العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض"(4)، ثم يتكلم عن أهمية حروف العطف ومعانيها، وما تُسهم به في الربط بين الجمل لتكوين النص، وما النص كما يرى فان دايك(Van dijk)، إلا تتابع مترابط من الجمل(5)، وهو نفس رأي "بوينكر"، مع شرط وجود الانسجام بينها، وبالتالي نصل إلى مفهوم واضح للدراسة النصية عند الجرجاني؛« فحين تجاوز هاريس Z.S Harris بالتحليل، حدود الجملة، وجعله يمتد ليشمل علاقة الجملة بالجمل التي ترد متعاقبة، وهو ما أصبح يعرف من بعد موضوع، علم قائم برأسه هو علم لغة النص...حين فعل ذلك، وصل في القرن العشرين إلى ما وصل إليه عبد القاهر قبله بتسعة قرون وزاد عليه عبد القاهر إدراكه للمعاني الإضافية الناتجة عن الصياغة النحوية وما تؤدي إليه من فروق في الأداء»(6).

هذه الفروق التي تتضح جليا في هذا النص المفتاح الذي يمثل مركزا تطرّق فيه الجرجاني لمختلف المسائل اللغوية المتعلقة بالدراسة النصية والظاهرة التبليغية، مبينا من خلالها مدار الإعجاز القرآني فيها.

والملاحظ في نظرية النظم للجرجاني وجود ثلاثة مصطلحات أساسية: الوجوه، الفروق، الموضع، يجب مراعاتها ليتم التبليغ، ذلك أن للغة إمكانات متعددة للتعبير عن مختلف المعاني، ولا يتأتى هذا إلا لمن خبر اللغة وأسرارها، فيتمكن من جعل خطابه يراعي المقام ويتوافق معه، فيوصل المعنى منطلقا في كل هذا من مراعاة أغراض المتكلم وأحوال الخطاب(7) .

تمثل الوجوه هنا البنية الشكلية بينما الفروق المعنى الدلالي العميق، فنجد للخبر وجوها متعددة يحددها المقام، وللحال كذلك فروق بين وجوهه، وللشرط كذلك وجوه وشروط مرتبطة بالمتكلم والأمر نفسه يحدث في الفروق بين أدوات الربط، ومراعاة كل هذه الدقائق في الكلام حسب المخاطبين وأغراض الخطاب، يسهم في تحقيق النظم، والاقتراب من الإعجاز القرآني دون تلمّسه .

المنارة للاستشارات

ولعل أهمّ ما تقوم عليه نظرية النظم عند الجرجاني هو مبدأ " توخي معاني النحو، فماذا يقصد به الجرجاني ؟

ثانيا: توخي معاني النحو عند الجرجاني: يقول الجرجاني: "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخِلَّ بشي منها"(8) .

يبدأ الجرجاني في هذا الجزء مباشرة في توضيح معنى النظم بفعل كلامي -"اعلم" - فيه استراتيجية توجيهية تعمل على جلب المتلقي قصد إفهامه معنى النّظم، وبيان كيفية تحقيقه في الخطاب، فيرى أنه-النظم- يتحقق من خلال إدراك المعاني النحوية، فيربط بين النحو والنظم ويجعلها متلازمين ومتوافقين، ويقصد الجرجاني "بالوضع الذي يقتضيه علم النحو"، توخي المعاني النحوية فيربط بين إدراك المعاني النحوية والمعاني النفسية داخل التركيب، فإذا تم ذلك تحقق النظم، « وإحداث هذا التوافق بين المعاني النفسية والتراكيب الدالة عليها لا يتم إلا بمعرفة عميقة للوظائف النحوية لأدوات النفي، أو أدوات الشرط أو أدوات النداء أو الاستفهام، وما يمكن أن يحدثه وضع أداة مكان أداة من تغيير في المعنى، وكذلك ندرك أثر نوعية الكلمة و موقعيتها في المعنى، فالكلمة المعرفة غير الكلمة المنكرة"(9) .

لذلك أكد الجرجاني على وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو والعمل على قوانينه وأصوله دون خروج عنها، وأورد الفروق بين وجوه الخبر، ووجوه الحال، والشرط، والأدوات، وإدراك الجرجاني لهاته القضايا وفروق الأداء اللغوي باستعمالاتها، وكذا علم النحو الذي يتجاوز قضايا الرفع والنصب والجر إلى معاني النحو، جعل له أثرا بارزا في خدمة، نحو النص، فكلامه كله دعوة صريحة لتجاوز الجملة للنص ذلك أن النص لا يكون إلا حسب ما تقول به قوانين النحو وأصوله ومناهجه .

صحيح أنه تكلم عن نحو الجملة أيضا لكنه أكد على كونه جزءا يسيرا من نحو أشمل، ذكره حينما تناول فروق الخبر على مستوى الجملة لضرورة النظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بمعنى خاص، وهذا لعمري مما يُسهم في ثراء اللغة وتوضيح طرائقها ودقائقها في التعبير، ثم يوسع الأمر ليتكلم عما ترتبط به الجملة بغيرها من الجمل،

المنارة للاستشارات

وذلك بعد أن أتمّ الحديث عن أركانها الأساسية، وكأنه يقصد نحو ما فوق الجملة كجزء ثان(10)، ثم حين حديثه عن الجمل ومواضع الفصل والوصل فيها ينتقل إلى جزء ثالث من أجزاء علم النحو، وهو الأساس في نحو النص بعدّه المميز بين نحو الجملة ونحو النص، حيث تحدث هنا عن جزئيات هي من صميم نحو النص، يتم فيها الربط بين متتاليات جميلة تشكل نصوصا متماسكة ومتكاملة ليتنقل إلى الجزء الرابع من علم النحو الذي يتطرق للتعريف والتنكير، التقديم والتأخير والحذف والتكرار.

وبهذه الظواهر اللغوية وعلى أساسها يقاس مدى تمايز النصوص، من خلال الأداء اللغوي فيها وحسن السبك والحبك بين جملها، يضاف لها وعي الناص(المتلفظ بالخطاب) بترتيب كلامه حسب المعاني في النفس، فأكد الجرجاني أنّ هذا هو مدخل الإعجاز القرآني(11) .

وقد يبدو الجرجاني في نصّه السابق مساويا بين النظم وعلم النحو، خاصة في استعماله أسلوب القصر، إلا أنه يجب التأكيد على الفرق بينهما عنده، فأصول النحو يُعنى بها قوانين التراكيب اللغوية وتنتمي لقوانين اللغة بينما «علم النحو أو النظم فهو الذي يحصر الخصائص الفنية أو الأدبية في الكلام شعرا كان أو نثرا»(12). ولذلك نجد الجرجاني يتحدث عن قوانين مجملة حين كلامه عن الأصول بينما في حديثه عن علم النحو يجعل النظم مقصورا على إتباع قوانينه التي تمثل نظام اللغة المستعمل من قبل الجماعة اللغوية فيتم على أساسه الاتصال اللغوي، وهذا يعني أن الجرجاني كان يقصد ما يقترب من مفهوم الكفاءة اللغوية Compétence linguistique التي يمتلكها المتكلم المستمع المثالي، حسب "نعوم تشومسكي"(Noam chomsky) التي تمكنه من إنتاج وتوليد جمل أصولية خاضعة لقواعد النحو وقوانينه، وهي الجمل التي يتحقق بها النظم باعتبارها سليمة، راعى فيها المتكلم قواعد الصحة، وتعد هذه النقطة من أهم الأفكار التي جاءت بها المدرسة التوليدية التحويلية (الكفاءة/ الأداء) ، فكان للجرجاني فضل السّبق التاريخي في طرحها بأسلوبه الخاص .

وإذا كان الجرجاني أكّد أن النظم هو وضع الكلام بحسب ما يقتضيه علم النحو فـ "لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم"(13).هذه المعاني التي للفكر تعلّق بها، لأنها معبّرة عن المعاني النفسية إذ "الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في

المنارة للاستشارات

النفس"(14). لذلك يجب التفريق بين النحو بالمعنى الشائع (قواعد تتحقق في الإعراب أقصى ما تفيده تقويم اللسان عند نطق الكلمات فهذه لا يتحقق على مستواها النظم)، وبين المعاني النحوية الوظيفية داخل التركيب وارتباطها بالمعنى النفسي الذي من خلاله يتم الاختيار والتأليف بين الألفاظ والعبارات وعلى أساسها يتحقق النظم .

إن معنى النظم يكمن في قصد المتكلم إلى اختيار ما يناسب أغراضه من المعاني النحوية، ويرتّبها في نفسه، ثم يبنى لها الكلمات (البناء)، ثم يرتبها (الترتيب)، منشئا بينها العلاقات بواسطة الربط، والمطابقة والإضافة (التعليق) حتى يخرج بنظم جيد؛« فما يقصده عبد القاهر من النظّم-كما يقول الباحث الجزائري الحاج صالح عبد الرحمان- هو ما ينتظم عليه الكلام بطرق كثيرة جدا، مما يجيزه النحو، ونلاحظ أنّ كل ما هو جائز في النحو، فهو مميّأ للمتكلم، ليستثمره بحسب ما له من أغراض، لا لشيء إلا لأنّ كل طريقة من الكلام تختصّ بدلالة خطابية خاصّة، أو بفائدة كما يقول البلاغيون، وهي النكتة. وهي دائما زائدة عن المعنى الوضعي لأنها عرف خاص بالاستعمال» . (15)

وأساس العملية هو معرفة القصد والغرض، فإدراك الغرض وفهم المقصود، -بحسب رؤية الجرجاني- أسمى من معرفة الإعراب، وهذا الذي ينبغي أن نهتم به في تعليم النحو، لذلك وجدناه يربط النحو بعلم المعاني، متجاوزا التركيز على الإعراب، وحفظ القواعد، إذ لا تفيدنا شيئا مادامت معزولة عن سياقات الاستعمال وغير موظفة، لذلك علينا تعلم النحو ومعانيه داخل التراكيب الجيدة التي تعين على تحصيل الملكة، كما بيّن ابن خلدون، وكل هذا يعدّ آراء ومبادئ تربوية تعليمية مهمّة، نحن اليوم في أمس الحاجة إليها، كان قد بينها ابن خلدون مستعينا فيها بما عند الجرجاني الذي تجاوز بفكره الوقاد عصره، ليتقاطع مع علوم اللغة والتربية الحديثة .

وعليه فمعاني النحو(16) عند الجرجاني(النظم) تتكوّن من علاقات وظيفية بين التراكيب اللغوية، تمتاح من رافدين: الأوّل وضعي ذو دلالات مباشرة معجمية، تكون في الألفاظ قبل دخولها التركيب، والثاني، يضمّ معاني ثواني يكتسبها اللفظ حين دخوله في سياق تركيبي معيّن؛ حيث يتفاعل مع باقي الألفاظ والتراكيب لإنشاء معنى جديد يتوخّاه الناظم

المنارة للاستشارات

ويقصده، وهو ما يتقاطع مع كثير من الأبحاث اللسانية الحديثة ومعطياتها. فالنظم نظرية تسهم في ثراء اللغة وكشف معانيها وضبطها، من خلال ما تتيحه للمتكلم من تحليلات دقيقة لفروق الأداء الكلامي بين كثير من وجوه التراكيب في الخبر والحال والشرط ووظائف الروابط الكثيرة التي شرحها الجرجاني وبيّن أدوارها في التفريق بين المعاني الناتجة من نسج التراكيب المختلفة، وهي مدار الإعجاز القرآني.

3 وجوه الخبر وفروق الأداء اللغوي في نظرية النظم :

لعل تحليل الجرجاني، في نظريته للنظم، لفروق المعنى في وجوه الخبر، تمثل نموذجا تطبيقيا لبيان دور النظم في إثراء اللغة وضبط معانيها حيث كشف في كل تركيب عن سمة معينة مولّدة عنه تختلف بحسب مقام الكلام وطريقة الاستعمال وكيفية التوظيف.

يقول الجرجاني مبينا الفروق في وجوه مختلفة للخبر هذه التي خصص لها أجزاء كثيرة من كتابه يشرح فيها الأغراض المختلفة التي أدت لهذه الفروق، يقول:« ذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ ينطلقُ، وينطلقُ زيدٌ ومنطلقٌ زيدُ، وزيدٌ المنطلقُ، والمنطلقُ زيدٌ، وزيدٌ هو المنطلقُ، وزيدٌ هو منطلقٌ"(17).

إن هذه الجمل التي أوردها الجرجاني تسير على حسب قوانين النحو وقواعده كما حدّدها سابقا« تمثل كفاءة لغوية صحيحة، ومن ثم فإنها تعد جملا أصولية تراعي... قواعد الصحة القاعدية التي وضعها علماء النحو»18).ليتلاقى هذا المفهوم الذي نظّر له الجرجاني أولا، بالجانب التطبيقي ممثلا في هذه الجمل، فكان منظّرا ومطبّقا، لبعض ما أتت به المدرسة التوليدية التحويلية حول الكفاءة اللغوية ومفهوم أصولية الجملة، لكن قبل ظهورها بكثير، ثم إن هذه الأمثلة التي يعرضها الجرجاني دالة على فروق في التراكيب أو بالأحرى فروق في الأساليب، مما يجعل التشابه قائما بين نظرية النظم ومفهوم الأسلوب في الدراسات الحديثة، خاصة وأن "علم النحو" يعني حسب الجرجاني «الفروق بين أساليب مختلفة في الكلام تبدو من منظور النحو المعياري أساليب متساوية ولكن هذه الفروق هي فروق في الدلالة تحوّل الكلام من مستوى إلى مستوى آخر، هذه الفروق هي مدار المعنى والدلالة»(19).

المنارة للاستشارات

ومنه فالنظم عند الجرجاني يتقاطع في بعض مظاهره مع الدراسات الأسلوبية، أو بالأحرى تتفق معه ذلك أن النظم أسبق منها، حيث نجد الجرجاني يشير صراحة للأسلوب قائلا: «والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه» (20) .

وتتحقق الفروق في الخبر من خلال نظرية النظم في توخي تلك العلاقات الوظيفية بين التراكيب لا المعاني الإفرادية، فهو يستمدّ أسس نظرية النظم من رافدين؛ الأول: معجمي وضعي، يكون في الألفاظ المفردة قبل دخولها التركيب، والثاني: معنى وظيفي (تركيبي)، يتم من خلال دخول اللفظة في تركيب لغوي معيّن يكسبها معاني جانبية إضافية، تشكل من خلالها علاقات روحية وظيفية، فإذا قلنا: "زيدٌ منطلقٌ" فمعناها النحوي هو العلاقة بين معنى "زيد" بعدّه اسم علم دال على شخص معين معلوم لدى المتلقي، ومن حيث إنه المراد الإخبار عن انطلاقه، وبين معنى "منطلقٌ" بعدّه دالا على حدث متعيَّن معلوم للسامع، ومن حيث هو مراد الإخبار به عن زيد، ومسند إليه مع تقرير لوقوعه منه(21).

لذلك نجد أن العلاقة بين "زيدٌ" و"منطلقٌ" تتنوع لحد لا حصر له، وتتكون في ضوء ذلك علاقات نحوية معنوية، مبنية على قوانين النحو وأصوله بطريقة لا تخرج عن وجوه التركيب، ولذلك ذكر عبد القاهر الجرجاني لهذه العلاقة ثمانية وجوه، تنطلق من أصل واحد قائم فيها جميعا، هو إثبات وقوع فعل الانطلاق من شخص معين هو زيد(جملة نواة)، إلا أن لكل وجه هنا خصوصية عن الآخر في الدلالة على معنى لا يتضمّنه غيره، هذا المعنى الإضافي «الزائد المتنوع بتنوع النمط التركيبي هو مناط المفاضلة، أما المعنى الأول الذي هو إثبات وقوع فعل هو الانطلاق من شخص معيّن هو زيد، فذلك لا تفاضل فيه بين أحد لأنه ثمرة نمط تركيبي موروث"(22) .

و بالتالي فإن لانطلاقة زيد عدة وجوه تصويرية تظهر من خلالها بلاغة المتكلم وقدرته على النظر في "الوجوه" و"الفروق"، واختيار ما يتناسب مع موضوعه في كلامه، فيوظفه حيث ينبغي له فوضع الكلمة موضع الابتداء، غير وضعها موضع الإخبار، وإيرادها نكرة غير إيرادها معرفة، ولكل من ذلك موضعه، فأحيانا تكون بلاغة المتكلم في قوله:"زيدٌ منطلقٌ"، ويكون حينا آخر بليغا بقوله:"زيدٌ ينطلقُ"، وقد لا يكون بليغا إلا حين يقول "زيدٌ هو

المنارة للاستشارات

المنطلقُ"، لذلك يجب على المتكلم أن يدرك الفروق بين كل وجه أو نمط، ويدرك مدى ملاءمته لما يرمي إليه وما يناسب مخاطبه(23) .

هكذا يولي عبد القاهر الجرجاني اهتماما لكل من المتكلم والسامع والمقام، الذي على أساسه تتعدّد الفروق والوجوه في الخبر؛ حيث أنه يركز على غرض المتكلم وقصده من كلامه + حال السامع+ المقام، الذي يفرض اختيارا على آخر، وكل هذه تعد جوانب مهمة يتقاطع فيها تحليل الجرجاني مع أحداث النظريات الغربية التداولية باعتبارها تدرس اللغة في سياق الاستعمال، فتركز على القصد، والغرض، والملاءمة، والاقتضاء، وبالتالي فالوجوه والفروق عند عبد القاهر الجرجاني تعدّ سمات تداولية تقف على قدم المساواة مع بعض اهتمامات اللسانيات التداولية في عصرنا الراهن فالفروق بين :

زيد ينطلق و زيد منطلق

م إ م م إ م

من حيث أن الفاعل في الجملة الأولى تقدّم للاهتمام، ودل الفعل على تجدد الحدث، وفي الجملة الثانية جاء الخبر اسما ليدل على الثبوت، فهذه السمات من اهتمام بالفاعل أو بالفعل ودلالة الحدث، ودلالة الثبوت هي التي حدّدت الفرق، وهي ضوابط تداولية متعلقة بالمسند، من حيث إثباته بالاسم أو الفعل، فالاسم يدل على الثبوت من غير تجدد والفعل يدل على تجدّد الحدث(24).

ويبدأ الجرجاني في تحليله لفروق الإثبات هذه في الاسم بالأمثلة "زيدٌ منطلقٌ"، "زيدٌ المنطلقُ"، "زيدٌ هو المنطلقُ"، "المنطلقُ زيدٌ" حيث يمثل التركيب الأول: "النمط الأصلي والتشكيل الأساسي أو ما يسمى في النظرية التوليدية الحديثة بالجملة النواة(التوليدية)، بينما يشكل الباقي صورا لجمل محولة عنها، في كل منها فرق دقيق يدل على معنى خاص، نتج من خلال قوانين تحويلية مختلفة: كالزيادة، والاستبدال، والحذف،.. دخلت على الجملة النواة، هذه القوانين سمّاها الجرجاني "قوانين النحو وأصوله"(25) .

المنارة للاستشارات

فالتركيب "زيدٌ منطلقٌ" مثّل جملة نواة تم انطلاقا منها، القيام بجملة من التحويلات حدّدت فروقا دقيقة تناسب كل منها مقاما ووضعا محدّدا، ونتُخاطب بالجملة النواة "زيدٌ منطلق": مخاطَبا لم يعلم أنّ انطلاقا كان، ولا ممّن كان زيد أم خالد أم علي، فتفيده ابتداء بذلك، لأنّ السامع يجهل المسند إليه والمسند معا.

وتتضح أكثر الفروق في الخبر المثبت بالاسم من خلال الجدول الآتي: (26)

المنارة للاستشارات

فروق في المعنى بين وجوه الخبر حسب الموضع			
المنطلق زيد	زيد هو المنطلق	زيد المنطلق	زيد منطلق
تركيب توليدي محول عن جملة محولة أيضا عن طريق التقديم والتأخير؛ فهي إخبار دلالي لمخاطب رأى انطلاقا تم من إنسان عن بعد، ولذلك لا اثبات فيها، ولكن المخاطب لا يدرك إن كان المنطلق زيد أم عمرو، فأثبت المتكلم الانطلاق لزيد عن طريق تقديم الخبر، لكن لا على نية تأخيره، بل ليكون مبتدأ، كما تم تأخير المبتدأ، لكن ليتحول هو الآخر إلى خبر.	تركيب توليدي محول أيضا بالإضافة باعتبارها من قواعد التحويل، فتم إضافة "ضمير الإحالة" هو بين الجزئين تأكيدا على أن الانطلاق تم من زيد مرة واحدة وهو وحده المختص بهذا الانطلاق ولذلك تم تأكيده بالمورفيم "هو" والذي يحيل إلى زيد.	تركيب توليدي محول عن الجملة النواة بواسطة زيادة المورفيم (ال)، لأن المخاطب هنا يعلم أن انطلاقا قد تم لكنه يتردد في من قام به فجاء المورفيم (ال) لإزالة الشك وإعلام المخاطب أن انطلاقا ما تمّ، ولا يعلم ممن تم فجوّز أن يكون من زيد، لكن هذا التركيب أوجب له ذلك، فصار ما كان معلوما على جهة الجواز، معلوم على جهة الوجوب.	تركيب نواة موجه لمخاطب لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد، ولا من غيره، وتمثل جملة نواة باعتباره إخبار دلالي موجه لمخاطب خالي الذهن من حدوث أي انطلاق لا من زيد ولا من عمر، هو إخبار مجرد من دلالات التوكيد الاختصاص، فكان إثبات الانطلاق للمخاطب من طرف زيد.

المنارة للاستشارات

بهذا يكون لكل تركيب محوّل، مقام تخاطبي (لفظي وحالي) يستدعيه؛ وهنا تبرز دقة النظم في اختيار التركيب المناسب للموضع المناسب حسب غرض المتكلم، وكل هذه الفروق تسهم في بيان مدى ثراء اللغة العربية بمعاني تتبدّى من خلال السياقات الاستعمالية لتراكيبها، لا في الخبر فقط بل حتى في الحال والشرط ، وفي المعاني الوظيفية لكثير من الصيغ والأدوات، كان قد كشفها الجرجاني في نظريته، وتمثل أسمى ما تبحث فيه اللسانيات التداولية.

يتضح الفرق إذن بين هذه التراكيب من خلال دلالة الأولى (زيدٌ منطلقٌ) والثانية (زيدٌ المنطلقُ) على إثبات معنى ما واختلافهما في خلو ذهن المخاطب من حدوث الانطلاق، ولا ممن تم هذا بالنسبة للجملة (زيدٌ منطلقٌ)، ودلالة الثانية على علم المخاطب بالانطلاق كحدثٍ تمّ إلا أنه لا يعلم ممن كان ذلك، فيؤكَّد له ذلك ويُخصَّص لزيد بواسطة المورفيم "ال" فكانت الجملة المحولة (زيدٌ المنطلقُ)، وذلك ليتحقق التوافق بين السياق التركيبي، ومقام الفعل الخارجي، والمخطط التالي يوضح ذلك(27) .

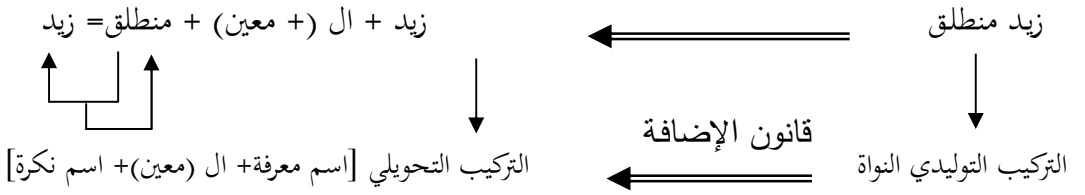

[اسم معرفة + اسم نكرة]

زيد منطلق

وإذا ما انتقلنا إلى التركيب الثالث "زيدٌ هو المنطلقُ"، نجده يدل على توكيد اختصاص زيد بالانطلاق وحده لمرة واحدة فجاء ضمير الفصل "هو" لينوب عن جملة بأكملها فالتقدير (زيد هو المختص بالانطلاق من دون الناس) ليتجسد مبدأ الاقتصاد اللغوي، حيث اختزل ضمير الفصل هو جهدا ذهنيا ونطقيا بخلافته لسلسلة من العناصر المتراصفة(28) .

المنارة للاستشارات

ومعلوم أن مبدأ الاقتصاد اللغوي مطلب تميل إليه كل اللغات، وركن أساس في المدرسة الوظيفية لـ"أندريه مارتينيه"، ألحّ عليه وبيّن دوره ومكانته في كتابه مبادئ اللسانيات العامّة .

ويختلف التعبير بهذه الأنواع بحسب المقام ومقتضيات السياق .

أما التركيب (المنطلقُ زيدٌ)، فقد تم فيه تحويلان: الأول بإضافة المورفيم (ال)، ثم الثاني: من خلال تقديم الخبر عن المبتدأ وتحوله هو للمبتدأ، وتحول المبتدأ السابق للخبر؛ يستعمل في مقام تواصلي يكون فيه المخاطب يرى عن بعد انطلاقا ما، لكنه لا يتبيّن له ممن تم ذلك.

أما عن الفروق في الإثبات بالفعل فإنها تدل ،كما يرى الجرجاني، على إثبات المعنى وتجدده فالتركيب "زيدٌ ينطلقُ" فيه إثبات لفعل الانطلاق المتجدد من طرف زيد، وبما أن "زيدٌ" مقدم على الانطلاق، فهو محل الاهتمام هنا، فالمخاطب لا يهمّه فعل الانطلاق بقدر ما يهمّه ممن كان، وأما التركيب ينطلق زيد فقد كان البدء بالفعل لأن اهتمام المخاطب منصب على فعل الانطلاق المتجدد ولا يهمه ممن كان، ومنه :

زيدٌ ينطلقُ ← اهتمامه بالمنطلق (زيد) لا بالفعل .

ينطلقُ زيدٌ ← اهتمام بحدث الانطلاق المتجدد .

أما "مُنطلق زيدٌ" فهو تركيب دال على حدث متجدد (الانطلاق)، هذا التجدد "أظهر ما يكون في الفعل المضارع الذي يعين على تجدد صورة الحدث أمام العين، ومن هنا يمكن أن نعبر به عن الزمن الماضي، عندما نحاول استعادة صورته أمام العين وكأنها تقع في اللحظة الحاضرة"(29) .

هذه الفروق يتم مراعاتها حسب غرض المتكلم وقصده، ويلخص الباحث "عبد الرحمان الحاج صالح" ما جاء في هذه الوجوه والفروق بقوله: "إن الذي يقصده الجرجاني هو تصرف المتكلم في الكلام، بحيث ينتقل من وجه إلى وجه ابتداء من أصل، وهو أقل هذه الوجوه لفظا ومعنى؛ أي ما ليس فيه زيادة إطلاقا... ويتصرف المتكلم انطلاقا من هذه النواة من الكلام، حسب ما تقتضيه دلالتها الوضعية الأصلية، ومجموع هذه الدلالات الفرعية تكوّن وضعا ثانيا غير الوضع الأول، ويمكن أن نسميه بـ "الوضع البلاغي

المنارة للاستشارات

expressire"(30). ولعلّ هذا المعنى للنظم هو ما اصطلح عليه السّكاكي(ت626هـ) يوسف بن أبي بكر في كتابه "مفتاح العلوم" بـ"تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة"(31) .

فينطلق المتكلم من جملة نواة تمثل أصلا للمعنى ، لإنتاج وتوليد جمل محوّلة عنها، كل منها بحسب سياق ومقام محدّد وغرض ما، رام المتكلّم تحقيقه، ليكون الحاصل معنى ثان متولد من التركيب الأوّل، وهو ما وسمه "عبد الرحمان الحاج صالح" بالوضع البلاغي، وهو مدار تفاوت بين المتكلمين .

و هذا ما وضحه من خلال المثال الآتي(32) :

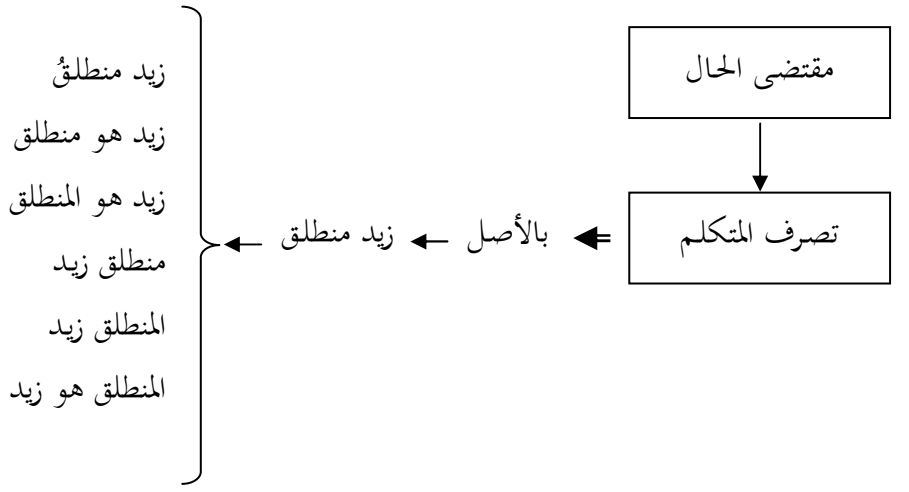

فنجد أن لكل وجه من الوجوه مزية دلالية لا توجد في الوجه الآخر، وبالتالي لكل وجه مقتضى بلاغي، يفرضه ولا يدركه إلا العليم الخبير بدقائق العربية وأسرارها البلاغية .

3 بيان قيمة نظرية النظم في اللسانيات العربية والغربية

إن نظرية النظم عند الجرجاني يراد بها إدراك المعاني النحوية، والتنسيق فيما بينها وبين

المنارة للاستشارات

المعاني النفسية(قصد المتكلّم وأغراضه)، في سبك الكلام وحبكه، بما يتلاءم مع المعنى المراد إفادته السّامع، مع مراعاة سياق الحال.

وقد وجدنا الجرجاني يركز كثيرا في سبيل هذا على معاني التراكيب، وفروق الأداء اللغوي فيما بينها، رغم أنها قد تبدو عادية مألوفة لغير المتمعّن فيها، ولا الخبير بسياقات نظم الكلام ومواضعه، بيد أنها للبليغ المتأني في تحليلاته المدرك لمواطن سَوق الكلام، تحمل فروقا في الأداء اللغوي؛ فيكون لكل من وجوه التركيب سياق نظمي يحتويه، وقصد يبتغيه الناظم باستعماله .

فليس النظم إلا توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وهو يعتمد على النحو كثيرا لكنه يتجاوز حدود الحكم بالصحة والفساد إلى البحث في العلاقات التركيبية ومحاولة الوقوف على معانيها التي كانت سببا في الجودة كالتقديم والتأخير فالنموذج النحوي إذن هو الأساس في الوقوف على معايير التعلم السليم والجودة الفنية لكن يجب أن يشمل النحو علم المعاني فيتجاوز القواعد الجافة لمعاني النحو، وحسب الباحث "حسين خمري" فالنحو في فكر عبد القاهر الجرجاني يتمظهر في مستويين: مستوى وظيفي بحت، ومستوى جمالي"(33). وكأني بعبد القاهر الجرجاني يؤسّس للدرس البلاغي بالدرس النحوي .

ومن الضروري كما هو معلوم بداهة في فقه اللسان العربي أن نقف على ما يصحّ وما لا يصحّ قبل كل شيء ،ثم يأتي الدرس البلاغي تاليا له ليبحث في اللطائف اللغوية وخواص التراكيب .

إن هذا الدور الأساس للنحو الذي انتبه له الجرجاني قديما، وحث عليه بعدّه،"النحو" مسهما في النظم الجيد دقيق التركيب والنسج، من خلال مزجه بالبلاغة هو الذي نحن بحاجة له اليوم، دون تعلم وحفظ قواعد جافة منعزلة عن أمثلتها الحية، فنظرة عبد القاهر الجرجاني كانت نظرة تعليمية ديناكتيكية تبين أفضل طريقة لتعلم النحو العربي من خلال ربطه بالمعاني وتوظيف الأساليب الجيدة المساعدة على سر أغوار معاني النحو .

المنارة للاستشارات

لا غرابة إذن أن تكون نظرية النظم مثالا حيا لتكامل المعارف وتفاعل الأنساق، ذلك أنها تتقاطع مع أحدث النظريات الغربية، فكلما ظهرت نظرية إلا ووجدنا لها دورا وتوطئة في "الدلائل" كيف لا وهو كتاب يقوم على ربط النحو بالبلاغة في علاقة تلازمية قوية، ويهدف لدراسة القرآن الكريم وبيان إعجازه، فإذا كان القرآن الكريم معجزا بآياته ونظمه، وصالحا لكل زمان ومكان، فإن كتابا مثل الدلائل وضع لبيان إعجازه سيكون لا محالة صالحا للتقابل مع كل نظرية تظهر باعتباره نشأ في ظل الكتاب المعجز، فأكسبه ذلك نوعا من الخلود أيضا.

و يمكن من خلال ما ورد في "الدلائل" وما قمنا بتحليله أن نحدد لنظرية النظم أركانا نراها تقوم عليها أساسا وتدور كل معاني الكتاب في فلكها وهي(34):

1. ترتيب المعاني في النفس

فلا تُنطق الألفاظ إلا على حسب ترتيب المعاني في النفس "فإذا وجب لمعنى أن يكون أوّلا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق"(35). فأولى مراحل النظم تدور في الذهن حيث تتم الملاءمة بين المعنى النفسي واللفظ قبل خروجها للتأليف في عملية لغوية تبدأ بالنطق.

2. التعلق النحوي

إن الألفاظ لا توضع في التركيب كيفما كان بل توضع في تآليف مختلفة تربطها علاقات نحوية "فلا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض وتجعل هذه بسبب من تلك"(36).

ومصطلح "التعليق" عند الجرجاني يعني إنشاء العلاقات النحوية من معاني النحو فتكون متناسقة ومنسجمة في شبكة لغوية واحدة.

3. تخير الموقع

فيجب أن نحسن اختيار الموقع لكل لفظ، ذلك أن تعلق الألفاظ ببعضها لا يكفي "و هل يقع في وهم وعن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر في مكان تقعان فيه من التأليف والنظم"(37) .

فالموقعية تشكل دورا مهما في تحقيق جودة النظم، وترتبط بالسياق إذ قد تكون اللفظة

المنارة للاستشارات

فصيحة مؤدّية للغرض في موقع، وتكون عكس ذلك في موضع آخر، والسياق اللغوي مع مراعاة المقام وغرض المتكلم هو ما يحدد الموقع المناسب للفظة ما، على حساب أخرى "و ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع" وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤمّ"(38) .

4. معاني النحو

و قد عني بها عبد القاهر الجرجاني أيما عناية فإذا كانت الألفاظ ترتب حسب ترتيب المعاني في النفس بحيث تتعلق بعضها ببعض، وتقع موقعها الملائم من النظم فلا بد من وسيلة لمعرفة الفروق الدقيقة بين نظم ونظم، والتي بها يكون التفاوت والتفاضل، ومعاني النحو، غير الإعراب، فالمراد غير ذلك مما يستنبط بالفكر والروية التي يستعان بها، لأن هذه المعاني إضافية تقوم على قوانين النحو وأصوله وتقع هذه المعاني في طوائف منها(39):

أ. معاني أقسام الكلم : كالحدث والزمن، الاسمية والكنية والاستعلاء وابتداء الغاية والعطف والاستدراك...

ب. معاني الصيغ : كالطلب والصيرورة والاتخاذ والمطاوعة.

ج. معاني أساليب الجمل : كالخبر، التأكيد والشرط والإنشاء والطلب والتعجب .

د. معاني أبواب النحو : كالإسناد، التبعية، التعدية، الصرفية، والغائية...

فهي عديدة لا حصر لها وكلها تقوم في سبيل تحقيق النظم داخل النص، فتتحقق على ضوئها معايير نصوصية النص، وكأن الجرجاني يريد التأسيس للسانيات نصية عربية، حيث يؤكد كلامه هنا وفي بقية العناصر على عناصر تحقيق الاتساق والانسجام كما وقف عليها علماء الغرب ثم إن هذه العناصر أو الأركان إذا تمكن المتكلم منها، نقول أنه تحصل على ما يسمى بالكفاءة التواصلية التي تمكنه من ترتيب المعاني وتعليقها مع بعضها في الموقع المناسب مراعيا معاني النحو وقصد المتكلم وحال السامع فنظم الجرجاني إذا هو نظم تداولي. يقوم على أركان تحوي بين طياتها أحدث الأفكار اللسانية وهي الأركان ذاتها التي تجعل – نظرة النظم مرنة مطواعة قادرة على استيعاب كل تيار أو مدرسة لسانية تدعي لنفسها المعاصرة وبالتالي لو أخذ الغرب بما جاء عند الجرجاني أو بالأحرى لو تعرض علماء اللغة الغرب في

المنارة للاستشارات

تاريخهم لعلم اللغة العام بما جاء في الحضارة العربية الإسلامية من دُرر ونفائس لغوية لكان حال العلوم اللغوية اليوم أكثر مما هو عليه وبالتالي فالغرب محروم من "مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب"(40) .

ولعلّ السبب في هذا، هو التعصب الديني، الذي جعلهم يقفزون على ثمانية قرون من التاريخ، تمثل فترة ازدهار الحضارة العربية، وعلى الرغم من ذلك كانوا يأخذون بعض هذه النفائس دون الإقرار بها، ما جعل التقاطع يظهر بوضوح بين نتائج أبحاثهم وما في تراثنا العربي، وهنا تظهر أهمية الربط بين الفكر اللغوي الحديث والتراث اللغوي العربي.

وكخلاصة لهدف نظرية النظم ودورها في إثراء اللغة، نقول مع الباحث "أحمد درويش" أنها تهدف إلى «إحداث التوافق النفسي بين المعاني النفسية والتراكيب الدالة عليها، ولا يتم إلا بمعرفة عميقة للوظائف النحوية لأدوات النفي أو أدوات الشرط، أو أدوات النداء...و ما يمكن أن يحدثه وضع أداة مكان أداة من تغيير في المعنى وكذلك ندرك أثر نوعية الكلمة وموقعيتها في المعنى، فالكلمة المعرفة غير الكلمة المنكرة والمعارف كذلك متفاوتة فليس معنى الضمير مُساويا لمعنى الموصول أو الإشارة، هذه العلاقة بين المعنى النفسي والوسائل النحوية التي تؤديه، هي العلاقة التي اهتدى إليها صاحب نظرية المعاني وأطلق على هذه الكلمة اسم نظرية النظم» (41) .

وأعلى صورة وأرقاها في النظم تتمثل في نظم القرآن الكريم المعجز، حيث الكلمات والتراكيب سهلة مفهومة ومتداولة ولكنها جاءت على نمط من "النظم" غاية في الدقة، وهو ميزان مهم في النظم، يقاس من خلاله الشعر والنثر، وهكذا تقف نظرية النظم كيفا إلى كيف مع أحدا النظريات اللغوية في الغرب، كما يقول تمام حسان، بل وتفوقها في مجال فهم التراكيب اللغوية، حيث جعل النظم دليلا على الكفاءة الذهنية التي يعتمد عليها المرسل (المتلقي) في انجاز الخطاب وفهمه من خلال المواءمة بين الكفاءة اللغوية الكامنة في الذهن وعناصر السياق الخارجي(42) .

فنظرية النظم تشكل بحثا عميقا في اللسانيات الحديثة، خاصة لسانيات النص سبق فيه عبد القاهر الجرجاني بثاقب فكره، وناقد بصره زمنه بكثير.

المنارة للاستشارات

كما أدرك الجرجاني بوعيه الحصيف أن الوصول إلى الانسجام يُحتّم تضافر النحو والبلاغة، وعَمَلِهما متكاملين فيما بينهما، ذلك أنّ النحو بدون بلاغة قوالب شكلية فارغة، والبلاغة بدون نحو مجرد صور مفككة .

فالجرجاني حريص كل الحرص عما يسمى "بالتطابق اللفظي"، والنظم عند عبد القاهر الجرجاني لابد له من أمرين اثنين: المعنى الذي يريد التحدث عنه، ثم اللفظ الذي نعبر به عن هذا المعنى، فإذا اختلف الغرض الذي يريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ، وهذا جوهر ما تعنى به نظرية السياق، ومنه فبحث الجرجاني في النظم هو في حد ذاته بحث في السياق وانسجام النص، يفيد ضبط المعنى وإثراء اللغة بكشف معاني جديدة تستفاد من السياقات الاستعمالية .

يقول الجرجاني:"و هل يقع في وهم – وإن جهد- أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم أكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية... وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها وفضل مؤانستها لأخواتها"(43).

يبدو واضحا في هذا المقطع وعي الجرجاني بالنظم، وإدراكه أن قيمة اللفظة تكمن في حسن ملاءمتها لمعاني جاراتها داخل التركيب، لا وهي منعزلة عنه، ذلك أنك تكتسب الفضل والمزية من خلال العلاقات التي تقيمها مع غيرها من الألفاظ.

4 نظرية النظم الإعجازية واللسانيات التداولية :

لحد الآن وجدنا أن نظرية النظم تشكل بؤرة مركزية، يمتد إشعاعها لكثير من المدارس والاتجاهات اللسانية الحديثة، وتنطبق عليها في جل أفكارها، حيث وجدناها نظرية دلالية تارة وأسلوبية تارة أخرى، فنظرية توليدية تحويلية أو لسانية نصية، فهي إذن مثال حي لتكامل المعارف وتفاعل الأنساق، وربما عاد هذا لكونها تمخضت عن فكرة الإعجاز القرآني غاية ما يصبو إليه علماؤنا، فكانت نظرية خالدة ومنفتحة على كل الاتجاهات الحديثة مرنة مطواعة اكتسبت كل ذلك من بحثها في القرآن الكريم المعجزة البيانية ولذلك سنحاول تأكيد كل هذا مرة أخرى، من خلال محاولة استكناه الأبعاد التداولية لنظرية "النظم" على

المنارة للاستشارات

أساس أن "التداولية" أحدث المناهج والاتجاهات اللسانية في يومنا الحاضر، وتقوم على دراسة الوظيفة التواصلية التبليغية وتبحث في ما يؤديه تداول اللغة بين متكلم ومستمع في سياق اجتماعي ومادي ثقافي، إنها « دراسة للمعنى في سياق التواصل»(44). وتعرف كذلك بأنها "دراسة الاتصال اللغوي في السياق".

ومن أبرز مفاهيم التداولية: متضمنات القول، والاستلزام الحواري، ونظرية الملاءمة والأفعال الكلامية ومبدأ الإفادة والقصدية .

فإذا ما بحثنا في نظرية النظم نجد أن الكلام عند الجرجاني يقوم على ركنين أساسين هما:القصد والإفادة فيتحكمان في العلاقات النحوية والتراكيب اللغوية.

لقد كان الجرجاني دائما ينطلق في تحليلاته من الاهتمام بالمتكلم وأغراضه ومقاصده، ثم يتوجه للسامع، ذلك أنه يبحث في كلام الله تعالى المعجز في نظامه وبنائه، حتى أن العرب أهل البيان والبلاغة عجزوا عن الإتيان بمثله لأن ناظمه هو الله تعالى، فكان الجرجاني يبحث في أوجه نظم القرآن الكريم، لذلك اهتم بالمتكلم وقصده (معاني النفس) ليبين عظمة الخالق، وكان يرمي إلى جعل الأدب العربي والبلاغة تستفيد من نظم القرآن الكريم وهذه نظرة تداولية في صميمها تهتم بالمقصد .

كما يتحقق مبدأ "القصد" عند الجرجاني من خلال نظريته "النظم" حيث ألحق الألفاظ بالمعاني وربطها بمقصد المستعمل لها (المتكلم)، كما أنه عندما تطرق لحالات ذكر المفعول وحذفه، رأى أن ذلك يعود إلى مراد المتكلم (قصده).

ثم إن قصدية المتكلم يقابلها عند الجرجاني "معاني النفس" التي يرتبها في ذهنه ثم يأتي بالألفاظ ليبنيها على منوال الترتيب .

ويضيف إلى هذه المعاني "الغرض" يعني غرض المتكلم الذي يجعله يذكر أو يحذف، أو يصب مرة ويفصل أخرى.

ومن جهة أخرى ترتبط القصدية "بالمخاطب أو الطرف المستمع لا بوصفه طرفا منتجا أساسا بل لكونه معتبرا في العملية التواصلية لأننا إذ نتكلم لا ننظر إلى الآخرين باعتبارهم طرفا مستهلكا سلبيا بل طرفا فاعلا " (45) .

المنارة للاستشارات

تعرض الجرجاني أيضا لمبدأ "الإفادة" بالتحليل رابطا إياه بالمقصد، مراعيا حال السامع، وظاهرة التعيين (التعريف والتنكير)، فإذا كان النكرة دالا على معنى شائعا في جنسه، فإن المعرفة خلاف ذلك تدل على معنى مخصص معين، وكان الاهتمام بالتعيين لكونه عنصرا هاما محققا لمبدأي "الإفادة والقصد"(46) .

فالتعيين إذن شرط ضروري للتواصل اللغوي، وبمراعاته حاول الجرجاني ربط المفهومين "التعيين" و"الإفادة" في علاقات نحوية كبرى كالإسناد، لذلك راح الجرجاني يحلل المعاني والمقاصد الناتجة عن تلك التراكيب الإسنادية التي تشكلت يقول،: "و من فروق الإثبات أنك تقول "زيد منطلق" و"زيد المنطلق" و"المنطلق زيد" فيكون ذلك في كل واحدة من هذه الأحوال غرض خاص، وفائدة لا تكون في الباقي...و اعلم أنك إذا قلت زيد منطلق كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيد ذلك ابتداء، وإذا قلت زيد المنطلق كان كلامك من لم يعلم أن انطلاقا كان إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد لا من غيره"(47) .

إن كلام الجرجاني هنا، ذو أبعاد تداولية مهمة وذلك على النحو التالي: إن كل وجه من هذه الوجوه والأحوال تقال عندما يريد المتكلم قصدا معينا فهي أحوال تراعي "المقصد" وهذه سمة تداولية هامة، وكذلك الفائدة التي تكون عند توظيف كل وجه حسب قصد المتكلم والإفادة أيضا من أهم مبادئ التداولية .

كما نجد سمات تداولية مهمة في كل وجه، تراعي إلى جانب قصد المتكلم حال السامع.

فقولنا: زيد منطلق: ← يكلم بها من لا يعلم الانطلاق ولا ممن كان فيكون الخبر هنا ابتدائيا.

وقولنا: زيد المنطلق: ← القصد منها حصر الانطلاق في زيد دون غيره أي التخصيص (سمة تداولية مهمة)

وقولنا: المنطلقُ زيد: ← يعني أن المخاطب رأى انطلاقا فعلا من شخص ولا يعلم من هو فنؤكد له أنه زيد .

المنارة للاستشارات

ويعد هذا التصنيف للأنواع الثلاث تصنيفا تداوليا أساسيا يقوم على قصد المخاطب، وحال السامع مع مراعاة مبدأ الإفادة بتوظيف تراكيب وصيغ سليمة، ومعينة لكل وجه، "فلكل بنية تركيبية إذن معناها ومقصدها وغايتها التداولية، ولكل صيغة لفظية وظيفية إبلاغية توجيها ملابسات الخطاب وأغراضه، ومن أهم تلك الملابسات والأغراض مراعاة حال السامع والفائدة التي يجنيها من الخطاب"(48) .

فالجرجاني في نظريته للنظم يركز كثيرا على معاني التراكيب وفروق الأداء اللغوي فيما بينها، على الرغم من كونها تبدو عادية مألوفة لغير الخبير بسياقات نظم الكلام ومواضعه، بيد أنها للبليغ المتأني في تحليلاته المدرك لمواطن سوق الكلام ، تحمل فروقا في الأداء اللغوي؛ فيكون لكل من وجوه التركيب سياق نظمي يحتويه، وقصد يبتغيه الناظم باستعماله، وهو ما أعطى مباحث نظريته أبعادا دلالية و نصية وتداولية مهمة.

خاتمة :

شكلت هذه الأفكار اللغوية، بعض ما جاءت به قريحة عبد القاهر الجرجاني، وصاغه قلمه، بإيعاز من فكره، في ما يخص "نظرية النظم والإعجاز القرآني" وما يحويه من فروق في وجوه متعدّدة، تسهم في إثراء اللغة وبيان لطائفها الدقيقة فيما تحويه من معاني ،حاولنا تحليلها، وبحث نقاط تقاطعها مع الدرس اللساني الغربي، فوجدنا الجرجاني بحق علامة مضيئة في تراثنا اللغوي، يقف على قدم المساوات في نظريته للنظم مع أبحاث المدارس اللسانية الغربية حينا، ويفوقها حينا آخر. فنظرية النظم إذن مثال حي-كما يقول الباحث بشير إبرير- لتفاعل الأنساق وتكامل المعارف والاختصاصات، لأنها تبحث في نص معجز بيانيا فاكتسبت بعض خصائص إعجازه لتصير مرنة مطواعة قادرة على مواكبة كل تطور لغوي،وهو ماعاد على اللغة العربية بكثير من الثراء اللغوي، ولم يبق سوى حسن استعمالها في سياقات الكلام المختلفة،بعد إدراك حقيقتها وجوهر موادّها .

المنارة للاستشارات

الهوامـش :

(1) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، اعتنى به علي محمد زينو، بيروت، مؤسسة الرسالة، ناشرون، ط1، 2005، ص50.

(2) المصدر نفسه، 76.

(3) بشير إبرير: مفهوم النص في التراث اللساني العربي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 23، العدد الأول، 2007، ص106.

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 172.

(5) ينظر:حسين خمري،نظرية النص،الجزائر،منشورات الاختلاف،ط:1،2007، ص 503 .

(6) محمود أحمد نحلة، في البلاغة العربية، ص 34 .

(7) ينظر: بشير إبرير: مفهوم التبليغ وبعض تجلياته التربوية في التراث اللساني العربي، مجلة التراث العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد 90، 2003، (www.awu.dam.org) .

(8) دلائل الإعجاز، ص 76.

(9) أحمد درويش:دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، القاهرة، دار غريب، (د. ط)، 1998،ص88 .

(10) ينظر: عمر أبو خرمة : نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى، أربد، الأردن،، ط1، 2004، ص45 .

(11) ينظر: المرجع نفسه، ص 46. 47 .

(12) نصر أبو زيد: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، المجلد5، العدد1، 1984، ص 15 .

(13) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 271 .

(14) المصدر نفسه: ص 58.

(15) عبد الرحمان الحاج صالح:الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر،2013، ص123.

المنارة للاستشارات

(16) ينظر: باديس لهويمل، توخي معاني النحو عند عبد القاهر الجرجاني واللسانيات الحديثة، مجلة الآداب واللغات، جامعة الأغواط، الجزائر، العدد العاشر، 2012، ص08.

(17) دلائل الإعجاز، ص 77.

(18) حسام البهنساوي: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الثقافة الدينية، دار المناهل للطباعة، 1994، ص 32.

(19) نصر أبو زيد: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، مجلة فصول، ص5.

(20) دلائل الإعجاز،ص .

(21) ينظر: محمود توفيق محمد سعد، نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني، جامعة الأزهر (www.ahlalhdeeth.com)، تاريخ الإطلاع لتحميل:2013/09/25، الساعة15 :25 .

(22) ينظر: . محمود توفيق محمد سعد، نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني، جامعة الأزهر (www.ahlalhdeeth.com)، تاريخ الإطلاع لتحميل:2013/09/25، الساعة15:25.

(23) ينظر: المرجع نفسه.

(24) ينظر: خديجة محمد الصافي: نسخ الوظائف النحوية في الجملة العربية، دار السلام، ط1، 2008، ص 8 .

(25) ينظر: بشير إبرير: دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، ص 103.

(26) ينظر: المرجع نفسه، ص 104.

(27) ينظر: دلخوش جار الله:الثنائيات المتغايرة في دلائل الإعجاز،دار دجلة ،الأردن،ط1، 2008، ص 181.

(28) ينظر: المرجع نفسه، ص 181 .

(29) أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص 6 .

(30) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،الجزائر،دار موفم للنشر، ج1، (د ط)،2007،ص347.

المنارة للاستشارات

(31) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم ،تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ط2000،1، ص247؛ وعبد الرحمان الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص123 .

(32) ينظر:عبد الرحمان الحاج صالح،بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزائر،ص347.

(33) حسين خمري، نظرية النص، ص 225 .

(34) ينظر: محمود أحمد نحلة، في البلاغة العربية، علم المعاني، ص 25. وما بعدها.

(35) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص56 .

(36) المصدر نفسه، ص 58 .

(37)المصدر نفسه ، ص 51 .

(38) المصدر نفسه، ص 81 .

(39) تمام حسان،مقالات في اللغة والأدب، القاهرة،عالم الكتب، ج2،ط1، 2006، ص .

(40) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 23 .

(41) أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص 88 .

(42) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط1، 2004، ص 07 .

(43)دلائل الإعجاز، ص 51 .

(44) عبد القاهر بن ظافر الشهيري: استراتجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط1، 2004، ص 22 .

(45) المرجع نفسه، ص 33 .

(46) ينظر : مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، بيروت، دار الطليعة، ط1، 2005، ص189 .

(47) دلائل الإعجاز، ص 141 .

(48) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 192 .

المنارة للاستشارات